الجزء الثانى والعشرون

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

يقنت : أى يخشع ويخضع ، وأعتدنا : هيأنا وأعددنا ، كريما : أى سالما من كل آفة وعيب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر زيادة عقابهن إذا أتين بفاحشة مبينة ، أتبعه بذكر ثوابهن إذا هن عملن صالح الأعمال — مع ما هيأه لهن من الرزق الكريم فى الدنيا وفى الآخرة ، ففى الدنيا يوفقن إلى إنفاق ما يرزقن على وجه يكون لهن فيه عظيم الأجر والثواب ولا يخشين من أجله العقاب ، وفى الآخرة يرزقن ما لا يحدّ ولا يوصف من غير نكد ولا كدر .

الإيضاح

(ومن يقنت منكنّ لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين) أى ومن تطع منكن الله ورسوله وتعمل صالح الأعمال نضاعف لها الأجر والمثوبة ، لكرامتها علينا بوجودها فى بيت النبوة ومنزل الوحى ونور الحكمة وعين الهداية .

(وأعتدنا لها رزقا كريما) أى وزيادة على هذا أعددنا لها الكرامة فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فلأنها تكون مرموقة بعين الغبطة لدى نساء العالمين، ومنظورا إليها نظرة المهابة والإجلال ، وأما فى الآخرة فلما لها من رفيع الدرجات ، وعظيم المنازل عنده تعالى فى جنات النعيم .

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)

شرح المفردات

أصل أحد وَحَد بمعنى الواحد وهو فى النفى عام للمذكر والمؤنث ، والواحد والكثير : أى لستنّ كجماعة واحدة من جماعات النساء ، فإذا استقرئت أمّة النساء جماعة جماعة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل والمسابقة ، والاتقاء بمعنى الاستقبال ، وهو بهذا المعنى معروف فى اللغة قال النابغة :

سقط النَّصيفُ ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليـــد

أى استقبلتنا باليد قاله أبوحيان فى البحر، ومنه قوله تعالى : «أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ». فلا تخضعن بالقول : أى فلا تجبن بقول خاضع ليّن، أى إذا استقبلتن أحدا فلا تلنّ الكلام ولا ترققنه ، مرض : أى ريبة وفجور ، قولا معروفا : أى حسنا بعيدا من الريبة غير مُطْمِع لأحد ، قرن ، من قَرَّ يقَرَّ من باب علم وأصله اقررن دخله الحذف ، والتبرج : إبداء المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره ، والجاهلية الأولى : هى الجاهلية القديمة جاهلية الكفر قبل الإسلام ، وهناك جاهلية أخرى هى جاهلية الفسوق فى الإسلام ، والرجس : فى الأصل الشىء القذر ؛ والمراد به هنا الإثم المدنس للعرض ، واذكرن ما يتلى فى بيوتكن : أى وعظن الناس بما يتلى فى بيوتكنّ ، وآيات الله : هى القرآن ، والحكمة : هى السنة وحديث الرسول .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما اختص به أمهات المؤمنين من مضاعفة العذاب والثواب ، أردف ذلك ببيان أن لهن مكانة على بقية النساء ، ثم نهاهن عن رخامة الصوت ولين الكلام إذا هن استقبلن أحدا حتى لا يطمع فيهن مَن فى قلبه نفاق ، ثم أمرهن بالقرار فى بيوتهن ونهاهن عن إظهار محاسنهن كما يفعل ذلك أهل الجاهلية الأولى ، ثم أمرهن بأهمّ أركان الدين ، وهو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله فيما يأمر وينهى ، لأنه تعالى أذهب الآثام عن أهل البيت وطهرهم تطهيرا ، ثم أمرهن بتعليم غيرهن القرآن وما يسمعنه من النبى صلى الله عليه وسلم من السنة .

الإيضاح

(يا نساء النبى لستن كأحد من النساء) أى يا نساء النبى إذا استُقْصِيت النساء جماعةً لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل والكرامة .

والخلاصة — إنه لا يشبهكن أحد من النساء ولا يلحقُكُنّ فى الفضيلة والمنزلة .

(إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا) أى إذا استقبلتن أحدا من الرجال فلا ترققن الكلام فيطمع فى الخيانة من فى قلبه فساد وريبة من فسق ونفاق ، وقلن قولا بعيدا عن الريبة غير مطمع لأحد .

وتفسير الاتقاء بهذا المعنى أبلغ فى مدحهن ، إذ لم يعلق فضلهن على التقوى ، ولا نهين عن الخضوع بها ، إذ هن متقيات لله فى أنفسهن ، والتعليق يقتضى بظاهره أنهن لسن متحليات بالتقوى قاله فى البحر ، وقال فى الكشاف : إن المعنى إن أردتن التقوى ، أو إن كنتن متقيات اه ، يريد إن اتقيتن مخالفة حكم الله تعالى ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم .

و إجمال هذا — خاطبن الأجانب بكلام لا ترخيم فيه للصوت ولا تخاطبنهم كما تخاطبن الأزواج .

ولما أمرهن بالقول المعروف أتبعه بذكر الفعل فقال :

(وقرن فى بيوتكن) أى والزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة ، وهو أمر لهن ولسائر النساء ، أخرج الترمذى والبزّار عن ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن المرأة عورة فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهى فى قعر بيتها » .

(ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) أى ولا تبدين زينتكن ومحاسنكن للرجال كما كان النساء يفعلن ذلك فى الجاهلية قبل الإسلام .

و بعد أن نهاهن عن الشر أمرهن بالخير فقال :

(وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) أى وأدّين الصلاة على الوجه القيم المعتبر شرعا ، وأعطين زكاة أموالكن كما أمركن الله .

وخص هاتين العبادتين بالذكر لما لهن من كبير الآثار فى طهارة النفس وطهارة المال .

وأطعن الله ورسوله فيما تأتين وما تذرن واجعلن نصب أعينكن اتباع الأوامر وترك النواهى .

ثم ذكر السبب فى هذه الأوامر والنواهى على وجه عام فقال :

(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا) أى إنما يريد الله ليذهب عنكم السوء والفحشاء يا أهل بيت الرسول و يطهركم من دنس الفسق والفجور الذى يعلق بأرباب الذنوب والمعاصى .

وأهل بيته صلى الله عليه وسلم من كان ملازما له من الرجال والنساء والأزواج والإماء والأقارب ، وكلما كان المرء منهم أقرب وبالنبى أخص وألزم كان بالإرادة أحق وأجدر ، وعن ابن عباس قال : «شهدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أشهر يأتى كل يوم باب على بن أبى طالب عند وقت كل صلاة فيقول: السلام عليكم ورحمة الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا ، الصلاة يرحمكم الله ، كل يوم خمس مرات » .

ثم بين ما أنعم به عليهن من أن بيوتهن مهابط الوحى بقوله :

(واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) أى واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن فى بيوت تتلى فيها آيات الله وما ينزل على الرسول من أحكام الدين ولم ينزل به قرآن ، فاحمدن الله على ذلك واشكرنه على جزيل فضله عليكن .

ولا يخفى ما فى هذا من الحث على الانتهاء والائتمار فيما كُلِّفْنَه ، كما لا يخفى ما فى تسمية ما نزل عليه من الشرائع بالحكمة ، إذ فيه الحكمة فى صلاح المجتمع فى معاشه ومعاده ، فمن استمسك به رَشَد ، ومن تركه ضلّ عن طريق الهدى ، وسلك سبيل الردى .

(إن الله كان لطيفا خبيرا) أى إن الله كان ذا لطف بكنّ ؛ إذ جعلكن فى البيوت التى تتلى فيها آياته وشرائعه ، خبيرا بكنّ إذ اختاركن لرسوله أزواجا .

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)

شرح المفردات

الإسلام : الانقياد والخضوع لأمر الله ، والإيمان : التصديق بما جاء عن الله من أمر ونهى ، والقنوت : هو الطاعة فى سكون ، والصبر : تحمل المشاق على المكاره والعبادات والبعد عن المعاصى ، والخشوع : السكون والطمأنينة ، أعد الله لهم مغفرة : أى هيأ لهم مغفرة تمحو ذنوبهم ، وأجرا عظيما : أى نعيما عند ربهم يوم القيامة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه نساء نبيه صلى الله عليه وسلم بأشياء ونهاهن عن أخرى ، ذكر هنا ما أعد للمسلمين والمسلمات من الأجر والكرامة عنده فى الدار الآخرة ، روى أحمد عن عبد الرحمن بن شيبة قال : «سمعت أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم تقول : قلت للنبى صلى الله عليه وسلم : ما لنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت فلم يرُعْنى منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر ، وأنا أسرح رأسى فلففت شعرى ثم خرجت إلى حجرة من حجرهن فجعلت سمعى عند الجريد فإذا هو يقول على المنبر يأيها الناس إن الله يقول فى كتابه : (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ـ إلى قوله : أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) .

الإيضاح

ذكر الله سبحانه الأوصاف التى يستحق بها عباده أن يمحو عنهم زلاتهم ويثيبهم بالنعيم المقيم عنده وهى :

(١) إسلام الظاهر بالانقياد لأحكام الدين فى القول والعمل .

(٢) إسلام الباطن بالتصديق التام والإذعان لما فرض الدين من الأحكام وهذا هو الإيمان .

(٣) القنوت وهو دوام العمل فى هدوء وطمأنينة كما قال: « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ؟ » وقال : « يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ » .

فالإسلام والانقياد مرتبة تعقبها مرتبة الإذعان والتصديق وينشأ عن مجموعهما القنوت والخشوع .

(٤) الصدق فى الأقوال والأعمال ، وهو علامة الإيمان كما أن الكذب أمارة النفاق ، فمن صدق نجا ، وفى الحديث « عليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار » .

(٥) الصبر على المكاره وتحمل المشاق فى أداء العبادات وترك الشهوات .

(٦) الخشوع والتواضع لله تعالى بالقلب والجوارح ابتغاء ثوابه وخوفا من عقابه كما جاء فى الحديث « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(٧) التصدق بالمال والإحسان إلى المحاويج الذين لا كسب لهم ولا كاسب ، وقد ثبت فى الصحيح « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » وفى حديث آخر « والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار » .

(٨) الصوم فإنه من أكبر العون على كسر الشهوة كما روى ابن ماجه من قوله صلى الله عليه وسلم «والصوم زكاة البدن» أى إنه يزكيه ويطهره من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً ، وجاء عنه صلى الله عليه وسلم « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

(٩) حفظ الفروج عن المحارم والآثام كما جاء فى الآية الأخرى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ » .

(١٠) ذكر الله ذكرا كثيرا بالألسنة والقلوب ، روى عن مجاهد أنه قال : لا يكتب الرجل من الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله تعالى قائما وقاعدا ومضطجعا. وأخرج النسائى وابن ماجه وأبو داود وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات». وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «سبق المفردون ، قالوا وما المفردون ؟ قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » وروى أحمد عن سهل بن معاذ الجهنى عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن رجلا سأله فقال : أى المجاهدين أعظم أجرا يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم أكثرهم لله تعالى ذكراً ، قال فأى الصائمين أكثر أجراً ؟ قال صلى الله عليه وسلم أكثرهم لله عز وجل ذكراً ، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثرهم لله ذكراً. فقال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما : ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال صلى الله عليه وسلم : أجل » .

هؤلاء الذين جمعوا هذه الأوصاف يمحو عنهم ذنوبهم ويؤتيهم الأجر العظيم فى جنات النعيم .

قصة زينب بنت جحش

زواجها لزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طلاقها منه ، زواجها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لإبطال عادة جاهلية ، وهى إعطاء المتبنى حكم الابن فى حرمة زواج امرأته بعد طلاقها .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٤٠)

شرح المفردات

تقول ما كان لفلان أن يفعل كذا : أى لا ينبغى له ، والخيرة : الاختيار ، مبينا : أى ظاهر الانحراف عن سنن الصواب ، أنعم الله عليه : أى بالإسلام ، وأنعمت عليه :

أى بالعتق ونيل الحرية ، واتق الله : أى فى أمرها ولا تطلقها ضرارا ، وتخشى الناس: أى تخاف من اعتراضهم وقولهم إن محمدا تزوج امرأة ابنه ، والوطر : الحاجة ؛ والمراد أنه لم يبق له بها حاجة الزوجية فطلقها ، زوجناكها : أى جعلناها زوجة لك ، والحرج: المشقة ، فرض له : أى قدر من قولهم فرض للجند كذا أى قدر لهم ، سنة الله : أى سن الله ذلك سنة ، خلوا : أى مضوا ، قدرا مقدورا : أى مقضيا وكائنا لابد منه .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله نبيه أن يخير زوجاته بين البقاء معه والتسريح سراحا جميلا وفهم من هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لايريد ضررا لغيره ، فمن كان ميله إلى شىء مكنه منه وترك حظ نفسه لحظ غيره — ذكر هنا أن زمام الاختيار ليس بيد الإنسان فى كل شىء كما أعطى ذلك للزوجات ، بل هناك أمور لااختيار لمؤمن ولا مؤمنة فيها وهى ما حكم الله فيه ، فما أمر به فهو المتبع ، وما أراد النبى صلى الله عليه وسلم فهو الحق ، ومن خالفهما فقد ضل ضلالا مبينا .

وقد نزلت هذه الآيات فى زينب بنت جحش بنت عمة النبى صلى الله عليه وسلم أُمَيْمة بنت عبد المطلب وقد خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم على مولاه زيد ابن حارثة فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فنزل: وما كان لمؤمن ولا مؤمنة الخ فلما نزلت قالا رضينا يا رسول الله فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهما وخمارا وملحفة ودرعا وإزارا وخمسين مُدًّا من طعام وثلاثين صاعا من تمر .

والحكمة فى هذا الزواج الذى لم يبال فيه النبى بإباء زينب ورغبتها عن زيد ، أن التصاق الأدعياء بالبيوت وانتسابهم بأنسابها كان أمرا تدين به العرب وتعده أصلا ترجع إليه فى الحسب والشرف ، وكانوا يعطون الدعىّ جميع حقوق الابن ويُجْرون عليه الأحكام التى يعطونها للابن حتى الميراث وحرمة النسب — فأراد الله

محو ذلك بالإسلام حتى لايعرف إلا النسب الصريح ومن ثم قال فى أول السورة « وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ » وبهذا حرم على المسلمين أن ينسبوا الدعىّ إلى من تبناه ، وأن يكون للمتبنّى إلا حق المولى والأخ فى الدين وحظر عليهم أن يقتطعوا له من حقوق الابن لا قليلا ولا كثيرا .

وما رسخ فى النفوس بحكم العادة لايمكن التخلص منه إلا بإرادة قوية تَسْخَر بسلطانها ، ولا تجعل لها حكما فى الأعمال إذا كانت المصلحة فى خلاف ذلك ، ومن ثمّ ألهم الله رسوله أن يلغى هذا الحكم بالعمل كما ألغى بالقول فى أحد عتقاه ، ومن ثمّ أرغم بنت عمته لتتزوج بزيد وهو متبناه ليكون هذا الزواج مقدمة لتشريع إلهى جديد .

ذاك أنه بعد أن تزوجها زيد شمخت بأنفها عليه وجعلت تفخُر عليه بنسبها ، فاشتكى منها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المرة بعد المرة وهو عليه السلام يغلبه الحياء حينئذ فى تنفيذ حكم الله ويقول لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله ، إلى أن غلب حكم الله وسمح لزيد بطلاقها ، ثم تزوجها بعد ذلك ليمزق حجاب تلك العادة كما قال : « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً » ثم أكد هذا بقوله : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا » .

الإيضاح

(وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) أى ليس لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله قضاء أن يتخيروا من أمرهم غير الذى قُضى فيهم ويخالفوا أمر الله ورسوله وقضاءهما ويعصياهما .

والخلاصة — لاينبغى لمؤمن ولا مؤمنة أن يختارا أمرا قضى الرسول بغيره .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) أى ومن يعص الله ورسوله فيما أمرا ونهيا فقد جار عن قصد السبيل وسلك غير طريق الهدى والرشاد ، وقد علمت فيما سلف سبب نزول هذه الآية .

ونحو الآية قوله : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

ثم ذكّر الله نبيه بما وقع منه ليزيده تثبيتا على الحق وليدفع عنه ماحاك فى صدور ضعاف العقول ومرضى القلوب فقال :

(و إذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله) أى واذكر أيها الرسول حين قولك لمولاك الذى أنعم الله عليه فوفّقه للإسلام وأنعمت عليه بحسن تربيته وعتقه وتقريبه منك : أمسك عليك زوجك زينب واتق الله فى أمرها ولا تطلقها ضرارا وتعللا بتكبرها وشموخا بأنفها ، فإن الطلاق يشينها ، وربما لايجد بعدها خيرا منها .

وفى التعبير بأنعمت عليه إيماء إلى وجه العتب بذكر الحال التى تنافى ما صدر منه عليه السلام من إظهار خلاف ما فى نفسه ، إذ هذا إنما يكون حين الاستحياء والاحتشام ، وكلاهما مما لاينبغى أن يكون مع زيد مولاه .

(وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) أى وأنت تعلم أن الطلاق لابد منه بما ألهمك الله أن تمتثل أمره بنفسك لتكون أسوة لمن معك ولمن يأتى بعدك ، وإنما غلبك فى ذلك الحياء وخشية أن يقولوا تزوج محمد مطلقة متبناه ، فأنت تخفى فى نفسك ما الله مبديه من الحكم الذى ألهمك .

(وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) أى وتخاف من اعتراض الناس والله

الذى أمرك بهذا كله أحق وحده بأن تخشاه ، فكان عليك أن تمضى فى الأمر قُدُما تعجيلا لتنفيذ كلمته وتقرير شرعه .

ثم زاد الأمر بيانا بقوله :

(فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً) أى فلما قضى زيد منها حاجته وملّها ثم طلقها جعلناها زوجا لك لترتفع الوحشة من نفوس المؤمنين ولا يجدوا فى أنفسهم حرجا من أن يتزوجوا نساء كنّ من قبل أزواجا لأدعيائهم .

(وكان أمر الله مفعولا) أى وكان ماقضى الله من قضاء كائنا لامحالة ؛ أى إن قضاء الله فى زينب أن يتزوجها رسول الله كأن ماض لابد منه .

روى البخارى والترمذى «أن زينب رضى الله عنها كانت تفخر على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم تقول زوجكن أهلوكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات » وأخرج ابن جرير عن الشعبى قال : «كانت تقول للنبى صلى الله عليه وسلم إنى لأُدِلُّ عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تُدِلُّ بهن : إن جدى وجدك واحد ، وإنى أنكحك الله إياى من السماء ، وإن السفير لجبريل عليه السلام » .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له) أى ليس على النبى حرج فيما أحل الله له من نكاح امرأة من تبناه بعد فراقه إياها .

ثم بين أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بدعا فى الرسل فيما أباح له من الزوجات والسرارى فقال :

(سنة الله فى الذين خلوا من قبل) أى إن الله سن لك أيها الرسول سنة أسلافك من الأنبياء الذين مضوا من قبل فيما أباح لهم من الزوجات والسرارى ، فقد كان لسليمان وداود وغيرهما عدد كثير منهن .

وفى هذا ردّ على اليهود الذين عابوه صلى الله عليه وسلم (وحاشاه) بكثرة الأزواج.

(وكان أمر الله قدرا مقدورا) أى وكان أمر الله الذى يقدره كائنا لامحالة وواقعا لامحيد عنه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

ثم وصف الذين خلوا بصفات الكمال والتقوى وإخلاص العبادة له وتبليغ رسالته فقال :

(الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله) أى هؤلاء الذين جعل محمد متبعا سنتهم وسالكا سبيلهم هم الذين يبلغون رسالات ربهم إلى من أرسلوا إليهم ويخافون الله فى تركهم تبليغ ذلك ولا يخافون سواه .

والخلاصة — كن من أولئك الرسل الكرام ولا تخش أحدا غير ربك فإنه يحميك ممن يريدك بسوء أو يمسك بأذى .

(وكفى بالله حسيبا) أى وكفى الله ناصرا ومعينا وحافظا لأعمال عباده ومحاسبا لهم عليها .

ولما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب قالوا تزوج حليلة ابنه فأنزل الله :

(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) أى ما كان لك أن تخشى أحدا من الناس بزواج امرأة متبناك لا ابنك ، فإنك لست أبا لأحد من الناس ، ولكنك رسول الله فى تبليغ رسالته إلى الخلق ، فأنت أب لكل فرد فى الأمة فيما يرجع إلى التوقير والتعظيم ووجوب الشفقة عليهم كما هو دأب كل رسول مع أمته .

وخلاصة ذلك — ليس محمد بأب لأحد منكم أبوة شرعية يترتب عليها حرمة المصاهرة ونحوها ، ولكنه أب للمؤمنين جميعا فيما يجب عليهم من توقيره وإجلاله وتعظيمه ؛ كما أن عليه أن يشفق عليهم ويحرص على ما فيه خيرهم وفائدتهم فى المعاش والمعاد وما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

أولاد النبى صلى الله عليه وسلم

ولد للنبى صلى الله عليه وسلم من خديجة ثلاثة ذكور: القاسم والطيب والطاهر، وماتوا صغارا لم يبلغ أحد منهم الحلم ، وولد له إبراهيم من مارية القبطية ومات رضيعا ، وولد له من خديجة أربع بنات : زينب ورُقيَّة وأم كلثوم وفاطمة ، وقد مات الثلاث الأول فى حياته صلى الله عليه وسلم ، وماتت فاطمة بعد أن قبض صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى بستة شهور .

(وكان الله بكل شىء عليما) فيعلم من هو الأجدر بالبدء به من الأنبياء ، ومن هو الأحق بأن يكون خاتمهم ، ويعلم المصالح فى ذلك .

ونحو الآية قوله : « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيماً (٤٤)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما ينبغى أن يكون عليه النبى صلى الله عليه وسلم مع ربه من تقواه و إخلاصه له فى السر والعلن ، وما ينبغى أن يكون عليه مع أهله وأقاربه من راحتهم و إيثارهم على نفسه فيما يطلبون كما يومىء إلى ذلك قوله : (يأيها النبى قل لأزواجك) الخ ، أرشد عباده إلى تعظيمه تعالى و إجلاله بذكره والتسبيح له بكرة وأصيلا ، فهو الذى يرحمهم وملائكته يستغفرون لهم كى يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وكان بعباده المؤمنين رحيما .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) أى أيها الذين صدقوا الله ورسوله اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ذكرا كثيرا فى جميع أحوالكم جهد الطاقة لأنه المنعم عليكم بأنواع النعم وصنوف المنن .

(وسبحوه بكرة وأصيلا) أى وتزهوه عما لايليق به طرفى النهار ، لأن وقت البكرة وقت القيام من النوم وهو يعدّ كأنه حياة جديدة بعد موت ، ووقت الأصيل وقت الانتهاء من العمل اليومى ، فيكون الذكر شكرا له على توفيقه لأداء أعمال الدنيا والقيام بالسعى على الأرزاق الدنيوية فلم يبق إلا السعى إلى ما يقرب إلى الله بعمل الآخرة .

ثم ذكر السبب فى هذا الذكر والتسبيح فقال :

(هو الذى يصلى عليكم وملائكته) أى إن ربكم الذى تذكرونه الذكر الكثير وتسبحونه بكرة وأصيلا — هو الذى يرحمكم ويثنى عليكم فى الملإ من عباده وتستغفر لكم ملائكته .

وفى هذا من التحريض على ذكره والتسبيح له ما لايخفى .

(ليخرجكم من الظلمات إلى النور) أى إنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة لكم — أخرجكم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ،

(وكان بالمؤمنين رحيما) فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فانه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم ، وبصّرهم الطريق الذى حاد عنه سواهم من الدعاة إلى الكفر ، وأما فى الآخرة فإنه آمنهم من الفزع الأكبر وأمر الملائكة أن يتلقوهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(تحيتهم يوم يلقونه سلام) أى تحييهم الملائكة بذلك إذا دخلوا الجنة ؛ كما قال تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ » .

(وأعدّ لهم أجرا كريما) أى وهيأ لهم ثوابا حسنا فى الآخرة يأتيهم بلا طلب بما يتمتعون به من لذات المآكل والمشارب والملابس والمساكن فى فسيح الجنات مما لاعين رأت ، ولاأذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر .

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيرًا (٤٧) وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً (٤٨)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تأديبه لنبيه فى ابتداء السورة ، وذكر ما ينبغى أن يكون عليه مع أهله ـ ذكر ما ينبغى أن يكون عليه مع الخلق كافة .

الإيضاح

(يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) أى يأيها الرسول إنا بعثناك شاهدا على من بعثت إليهم تراقب أحوالهم ، وترى أعمالهم ، وتتحمل الشهادة بما صدر منهم من تصديق وتكذيب ، وسائر مايفعلون من الهدى والضلال ، وتؤدّى ذلك يوم القيامة ، وأرسلناك مبشرا لهم بالجنة إن صدّقوك ، وعملوا بما جئتهم به من عند ربك ، ومنذرا لهم بالنار يدخلونها فيعذبون فيها إن هم كذبوك وخالفوا ما أمرتهم به ونهيتهم عنه .

(وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) أى وداعيا الخلق إلى الإقرار بوحدانيته تعالى ، وسائر مايجب له من صفات الكمال ، وإلى عبادته ، ومراقبته فى السر والعلن ـ

وسراجا منيرا يستضىء بك الضالون فى ظلمات الجهل والغواية ، ويقتبس من نورك المهتدون ، فيسلكون مناهج الرشد والسعادة .

(وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا) أى وراقب أحوال أمتك ، وبشر المؤمنين بأن لهم فضلا كبيرا على سائر الأمم ، فإنهم سيغيّرون نظم المجتمع من ظلم وجور إلى عدل وصلاح ، ويدخلون الأمم المتعثرة فى أثواب الضلال فى زمرة الأمم التى عليها صلاح البشر فى مستأنف الزمان .

أخرج ابن جرير وعكرمة عن الحسن أنه قال : لما نزل قوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » قالوا : يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله : « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيرًا » .

ولما أمره الله بما يسرّ نهاه عما يضر ، فقال :

(ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) أى ولا تطع قول كافر ولا منافق فى أمر الدعوة ، وألن الجانب فى التبليغ ، وارفق فى الإنذار ، واصفح عن أذاهم ، واصبر على ما ينالك منهم ، وفوض أمورك إلى الله ، وثق به فإنه كافيك جميع مَن دونك ، حتى يأتيك أمره وقضاؤه ، وهو حسبك فى جميع أمورك ، وكالئك وراعيك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٤٩)

شرح المفردات

النكاح هنا : العقد ، والمسّ معروف ؛ والمراد به قربان المرأة ، ومن أدب القرآن الكريم التعبير عنه بالملامسة والمماسة ، والقربان والتغشى والإتيان ، والعدّة : الشىء

المعدود ، وعدّة المرأة : الأيام التى بانقضائها يحل بها التزوج ، فمتعوهن : أى أعطوهن المتعة ، وهى قميص وخمار (ماتغطى به المرأة رأسها) وملحفة (ماتلتحف به من قرنها إلى قدمها ـ ملاية) سرحوهن : أى أخرجوهن من منازلكم ، سراحا جميلا : أى إخراجا مشتملا على لين الكلام خاليا من الأذى .

المعنى الجملى

أدّب الله نبيه بمكارم الأخلاق بقوله : يأيها النبى اتق الله ، وثنى بتذكيره بحسن معاملة أزواجه بقوله : يأيها النبى قل لأزواجك ، وثلث بذكر معاملته لأمته بقوله : يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ، وكان كلما ذكر للنبى مكرمة ، وعلمه أدبا ذكر للمؤمنين ما يناسبه ، فأرشد المؤمنين فيما يتعلق بجانبه بقوله : يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ، وفيما يتعلق بما تحت أيديهم من الزوجات بقوله : يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات، وفيما يتعلق بمعاملتهم لنبيهم فقال: لاتدخلوا بيوت النبى الخ، وقال: يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .

الإيضاح

أى يأيها الذين آمنوا إذا عقدتم على المؤمنات وتزوجتموهن ثم طلقتموهن من قبل المسيس ، فلا عدّة لكم عليهن بأيام يتربص بها تستوفون عددها ، ولكن اكسوهن كسوة تليق بحالهن إذا خرجن وانتقلن من بيت إلى آخر ، ويختلف ذلك باختلاف البيئة والبلد الذى تعيش فيه المرأة ، وأخرجوهن إخراجا جميلا ، فهيئوا لهن من المركب والزاد وجميل المعاملة ماتقرّ به أعينهن ويسرّ به أهلوهن ؛ ليكون فى ذلك بعض السلوة مما لحقها من أذى بقطع العشرة التى كانت تنتظر دوامها ، وبخروج من بيت كانت ترجو أن يكون هو المقام إلى أن تلاقى ربها ، أو يموت بعلها .

روى البخارى عن سهل بن سعد وأبى أسيد رضى الله عنهما قالا : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه صلى الله عليه

وسلم بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين (ضرب من الثياب مشهور فى ذلك الحين) .

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ ، وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠)

شرح المفردات

الأجور هنا : المهور ، وما ملكت يمينك : أى ما أخذته من المغانم ، خالصة لك : أى هى خاصة بك ، حرج : أى ضيق ومشقة .

الإيضاح

(يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن) أى يأيها النبى إنا أحللنا لك الأزواج اللاتى أعطيتهن مهورهن ، وقد كان مهره عليه السلام لنسائه اثنتى عشرة أوقية ونصفا أى خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشى رحمه الله أربعمائة دينار .

(وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) أى وأحللنا لك الإماء اللواتى سبيتهن فملكتهن بالسباء ، وصرن لك من الفىء بفتح الله عليك ، وقد ملك صفية بنت حيى ابن أخطب فى سبى خيبر ، ثم أعتقها ، وجعل صداقها عتقها ، وجُوَيْرِية بنت الحرث

من بنى المصطلق أعتقها ، ثم تزوجها ، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ، ومارية أم إبراهيم ، وكانتا من السرارى .

(و بنات عمك و بنات عماتك و بنات خالك و بنات خالاتك اللاتى هاجرن معك) أى وأحللنا لك بنات عمك و بنات عماتك ، و بنات خالك و بنات خالاتك المهاجرات معك دون من لم يهاجرن .

روى السُدّى عن أبى صالح عن أم هانئ قالت : « خطبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعتذرت إليه ، فعذرنى ؛ ثم أنزل الله تعالى : (إنا أحللنا لك أزواجك ـ إلى قوله ـ اللاتى هاجرن معك) قالت : فلم أكن أحل له ، ولم أكن ممن هاجر معه ، كنت من الطلقاء » .

(وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) أى وأحللنا لك التمتع بالمرأة المؤمنة التى تهب نفسها لك بلا مهر إن أردت ذلك .

وهذه الإباحة خاصة لك من دون المؤمنين ، فلو وهبت امرأة نفسها لرجل وجب عليه لها مهر مثلها ، كما حكم بذلك رسول الله فى بَرْوَع بنت واشق لما فوضت نفسها ومات عنها زوجها فحكم لها بصداق مثلها .

والموت والدخول سواء فى تقرير مهر المثل ، وثبوت مهر المثل فى المفوّضة لغير النبى صلى الله عليه وسلم ، فأما هو فلا يجب عليه للمفوّضة شىء لو دخل بها ، لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولىّ ولاشهود ، كما فى قصة زينب بنت جحش رضى الله عنها .

(قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم) أى قد علم الله ما ينبغى فرضه على المؤمنين فى أزواجهم من شروط العقد ، وأنه لاتحل لهم امرأة بلفظ الهبة ، وبدون شهود ، وفى الإماء بشراء أو غيره أن تكون ممن تحل لمالكها كالكتابية بخلاف الوثنية والمجوسية ـ وهذه الجملة معترضة بين ماسلف وما سيأتى :

ثم ذكر العلة فى اختصاصه عليه الصلاة والسلام بما تقدم من الأحكام بقوله :
(لكيلا يكون عليك حرج) أى أحللنا لك ذلك حتى لا يكون حرج وضيق فى نكاح من نكحت من الأصناف السالفة .

(وكان الله غفورا رحيما) أى وكان ربك غفورا لك ، ولأهل الإيمان بك ، رحيما بك وبهم أن يعاقبهم على سالف ذنب صدر منهم بعد توبتهم .

تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)

شرح المفردات

ترجى : أى تؤخر من الإرجاء وهو التأخير ، وقرئ ترجئ ، وتؤوى : أى تضم وتضاجع ، ابتغيت : أى طلبت ، عزلت : أى تجنبت ، أدنى : أى أقرب ، تقرّ : أى تسرّ .

الإيضاح

(ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء) أى تؤخر مضاجعة من تشاء من نسائك ، وتضاجع من تشاء ، ولا يجب عليك قَسْم بينهن ، بل الأمر فى ذلك إليك ، على أنه كان يقسم بينهن .

(ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) أى ومن دعوت إلى فراشك ، وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالطلاق ، فلا ضيق عليك فى ذلك .

والخلاصة : إنه لا ضير عليه إذا أراد إرجاع من طلقها من قبل .

روى ابن جرير عن أبى رَزِين قال : « لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقهن، فقلن : يا رسول الله اجعل لنا من مالك ، ومن نفسك ما شئت ، ودعنا كما نحن ؛ فنزلت هذه الآية ، فأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهن ، وآوى إليه بعضهن وكان ممن آوى إليه عائشة وحفصة وزينب وأم سلمة ، وكان يقسم بينهن سواء ، وأرجأ منهن خمسا : أم حبيبة وميمونة ، وسودة وصفية وجويرية ، فكان لا يقسم بينهن ما شاء » .

ثم بين السبب فى الإيواء والإرجاء ، وأنه كان ذلك فى مصلحتهن ، فقال :

(ذلك أدنى أن تقرّ أعينهن ولا يحزنّ و يرضين بما آتيتهن كلهن) أى إنهن إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج فى القَسْم ، فإن شئتَ قسمتَ ، و إن شئت لم تقسم، لا جناح عليك فى أىّ ذلك فعلت ، وأنت مع هذا تقسم لهن اختيارا منك لا وجوبا عليك ــ فرحن بذلك ، واستبشرن به ، واعترفن بمنتك عليهن فى قسمك لهن ، وتسويتك بينهن ، و إنصافك لهن ، وعدلك بينهن .

(والله يعلم ما فى قلوبكم) من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه ، ومن الرضا بما دبر الله فى حقهن من تفويض الأمر إليه صلى الله عليه وسلم .

روى أحمد عن عبد الله بن يزيد عن عائشة قالت : « كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول : « اللهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » يعنى القلب ، وزيادة الحب لبعض دون بعض .

وفى هذا حث على تحسين ما فى القلوب ، ووعيد لمن لم يرض منهن بما دبَّر الله من ذلك ، وفوّضه إلى مشيئته ، وبَعْث على تواطؤ قلوبهن ، والتصافى بينهن ، والتوافق على رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(وكان الله عليما حليما) أى وكان الله عليما بالسرائر ، حليما فلا يعاجل أهل الذنوب بالعقوبة ، ليتوب منهم من شاء له أن يتوب ، و ينيب من ذنو به من ينيب .

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (٥٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه لم يوجب على نبيه القَسْم لنسائه وأمره بتخييرهن فاخترن الله ورسوله — أردف ذلك بذكر ما جازاهم به من تحريم غيرهن عليه ومنعه من طلاقهن بقوله : (ولا أن تبدّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن .)

الإيضاح

تتضمن الآية الكريمة حكمين : ألا يتزوج عليه السلام غيرهن ، ولا أن يستبدل بهن غيرهن ، و إلى ذلك أشار بقوله :

(١) (لايحل لك النساء من بعد) أى لايحل لك النساء من بعد هؤلاء التسع اللاتى فى عصمتك اليوم كِفاء اختيارهن الله ورسوله وحسن صنيعهن فى ذلك .

أخرج أبو داود فى ناسخه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أنس قال : « لما خيرهن فاخترن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم قصره سبحانه عليهن » .

وروى عن ابن عباس أنه قال فى الآية : (حبسه الله تعالى عليهن كما حبسهنّ عليه).

(٢) (ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك) أى ولا يحل لك أن تستبدل بهن أزواجا غيرهن بأن تطلق واحدة منهن وتنكح بدلها أخرى مهما كانت بارعة فى الحسب والجمال إلا ما ملكت يمينك منهن ، وقد ملك بعدهن مارية القبطية أهداها له المقوقس فتسرّاها وأولدها إبراهيم ومات رضيعا.

وفى الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد زواجها ، وقد روى أبو داود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل » وعن المغيرة بن شعبة قال : « خطبت امرأة فقال لى النبى

صلى الله عليه وسلم : هل نظرت إليها ؟ قلت لا . قال : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » .

(وكان الله على كل شىء رقيبا) أى وكان الله حافظا ومطلعا على كل شىء ، عليما بالسر والنجوى ، فاحذروا تجاوز حدوده وتخطى حلاله إلى حرامه .

آية الحجاب وما فيها من أحكام وآداب

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) .

شرح المفردات

إناه : أى نضجه : يقال أنى الطعامُ يأنى أنًى : أى أدرك وفرغ ، وفيه لغات : إنى بكسر الهمزة وأنى بفتحها مقصورا وممدودا قال الحطيئة :

وأخرتِ العَشاء إلى سُهَيْل أو الشِّعْرى فطال بى الأناء

فانتشروا : أى فتفرقوا ولا تلبثوا ، مستأنسين لحديث : أى مستمعين له ، متاعا :

أى شيئا تتمتعون به من ماعون وغيره ، أطهر لقلوبكم : أى أكثر تطهرا من الخواطر الشيطانية التى تخطر للرجال فى أمر النساء وللنساء فى شأن الرجال .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال النبى صلى الله عليه وسلم مع أمته بقوله : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » أردف ذلك ببيان حال المؤمنين مع النبى صلى الله عليه وسلم ؛ إرشادا لما يجب عليهم نحوه من الاحترام والتعظيم فى خلوته وفى الملإ ، فأبان أنه يجب عدم إزعاجه إذا كان فى الخلوة بقوله : « لَاتَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ » الخ . وأنه يجب إجلاله إذا كان فى الملإ بقوله : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

روى أن هذه الآية نزلت يوم تزوج النبى صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش؛ فقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم وابن جرير وابن مردويه والبيهقى عن أنس قال : « لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون و إذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبى صلى الله عليه وسلم ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى و بينه فأنزل الله : (يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى) الآية .

الإيضاح

أدب الله عباده بآداب ينبغى أن يتخلقوا بها لما فيها من الحكم الاجتماعية والمزايا العمرانية فقال:

(١) (يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير

ناظرين إناه) أى أيها الذين آمنوا بالله ورسوله: لاتدخلوا بيوت نبى الله إلا أن تُدْعوا إلى طعام تطعمونه غير منتظرين إدراكه ونضجه .

وخلاصة ذلك — إنكم إذا دعيتم إلى وليمة فى بيت النبى صلى الله عليه وسلم فلا تدخلوا البيت إلا إذا علمتم أن الطعام قد تم نضجه وانتهى إعداده ، إذ قبل ذلك يكون أهل البيت فى شغل عنكم ، وقد يلبسن ثياب البِذْلة والعمل فلا يحسن أن تروهنّ وهنّ على هذه الحال ، إلى أنه ربما بدا من إحداهن ما لايحل النظر إليه .

(٢) (ولـكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث) أى ولـكن إذا دعاكم الرسول صلى الله عليه وسلم فادخلوا البيت الذى أذن لـكم بدخوله ، فإذا أكلتم الطعام الذى دعيتم إلى أكله فتفرقوا واخرجوا من منزله ولا تمكثوا فى البيت لتتبادلوا ألوان الحديث وفنونه المختلفة .

أخرج عبد بن حميد عن الربيع عن أنس قال : كانوا يتحينون فيدخلون بيت النبى صلى الله عليه وسلم فيجلسون فيتحدثون ليدرك الطعام فأنزل الله (يأيها الذين آمنوا) الآية .

وأخرج ابن أبى حاتم عن سليمان بن أرقم قال : نزلت هذه فى الثقلاء ومن ثم قيل هى آية الثقلاء .

ثم علل ذلك بقوله :

(إن ذلـكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لايستحيى من الحق) أى إن ذلك اللُّبْث والاستئناس والدخول على هذا الوجه كان يؤذى النبى صلى الله عليه وسلم لأنه كان يمنعه من قضاء بعض حاجه ، إلى ما فيه من تضييق المنزل على أهله ، لـكنه كان يستحيى من إخراجكم ومنعكم مما يؤذيه ، والله لم يترك الحق وأمركم بالخروج.

وفى هذا إيماء إلى أن اللبث يحرم على المدعو إلى طعام بعد أن يَطْعَم إذا كان فى ذلك أذى لرب البيت ، ولو كان البيت غير بيت النبى صلى الله عليه وسلم فالتثقيل مذموم فى كل مكان ، محتقر لدى كل إنسان .

وعن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما « حسبك فى الثقلاء أن الله عز وجل لم يحتملهم »

وعلى الجملة فللدعوة إلى المآدب نظم وآداب خاصة أفردت بالتأليف ولا سيما فى العصر الحديث .

وجعلوا التحلل منها وترك اتباعها مما لا تسامح فيه .

(٣) (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) أى وإذا سألتم أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين اللواتى لسن لكم بأزواج ، شيئا تمتعون به من ماعون وغيره فاطلبوا منهن ذلك من وراء ستر بينكم وبينهن .

أخرج البخارى وابن جرير وابن مردويه عن أنس رضى الله عنه قال : قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب فى صبيحة عُرْس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة ، وهى مما وافق تنزيلها قول عمر كما فى الصحيحين عنه قال : وافقت ربى عز وجل فى ثلاث ، قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله : « وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » وقلت: يارسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن فأنزل الله آية الحجاب ، وقلت لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم لما تمالأن عليه فى الغَيْرة « عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ » فنزلت كذلك .

ثم بين سبب ما تقدم بقوله :

(ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أى ذلك الدخول بالإذن وعدم الاستئناس للأحاديث أطهر لقلوبكم وقلوبهن من وساوس الشيطان والريب ، لأن العين رسول القلب ، فإذا لم تر العين لم يشته القلب ، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر وعدم الفتنة

حينئذ أظهر ، وجاء فى الأثر « النظر سهم مسموم من سهام إبليس » وقال الشاعر :

والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... فى أعين العين موقوف على الخطر
يسر مُقْلَتَهُ ما ساء مُهْجَته ... لا مرحبا بانتفاع جاء بالضرر

ولما ذكر ما ينبغى من الآداب حين دخول بيت الرسول أكده بما يحملهم على ملاطفته وحسن معاملته بقوله :

(وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) أى وما كان ينبغى لكم أن تفعلوا فى حياته صلى الله عليه وسلم فعلا يتأذى به ويكرهه كاللبث والاستئناس بالحديث الذى كنتم تفعلونه ، فإن الرسول يسعى لخيركم ومنفعتكم فى دنياكم وآخرتكم ، فعلينا أن نقابله بالحسنى كِفاء جليل أعماله .

ولما كان صلى الله عليه وسلم قد قُصر عليهن قصرهن الله عليه بقوله .

(ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) أى ولا تنكحوا أزواجه أبدا من بعد مفارقتهن بموت أو طلاق ، زيادة فى شرفه ، وإظهارا لعظمته وجلاله ، ولأنهن أمهات المؤمنين ، والمرء لا يتزوج أمه .

ثم بين السبب فيما تقدم بقوله :

(إن ذلكم كان عند الله عظيما) أى إن ذلك الإيذاء وزواج نسائه من بعده أمر عظيم وخطب جلل لا يقدر قدره غير الله تعالى .

ولا يخفى ما فى هذا من شديد الوعيد وعظيم التهديد على هذا العمل — إلى ما فيه من تعظيم شأن الرسول وإيجاب حرمته حيا وميتا .

ثم بالغ فى الوعيد وزاد فى التهديد بقوله :

(إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شىء عليما) أى إن ما تكنّه ضمائركم وتنطوى عليه سرائركم فالله يعلمه إذ لا تخفى عليه خافية « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » ثم يجازيكم بما صدر منكم من المعاصى البادية والخافية ، والكلام وإن كان عاما بظاهره فالمقصود ما يتعلق بزوجاته عليه السلام .

وسبب نزول الآية أنه لما نزلت آية الحجاب قال رجل : أُنْهَى أن نكلم بنات أعمامنا إلا من وراء حجاب ؟ لئن مات محمد لنتزوجنّ نساءه .

وأخرج جويبر عن ابن عباس « أن رجلا أتى بعض أزواج النبى فكلمها وهو ابن عمها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لاتقومنّ هذا المقام بعد يومك هذا ، فقال يا رسول الله إنها ابنة عمى ، والله ماقلت منكرا ولا قالت لى ، قال النبى صلى الله عليه وسلم: قد عرفت ذلك : إنه ليس أحد أغير من الله تعالى ، و إنه ليس أحد أغير منى ، فمضى ثم قال ما يمنعنى من كلام ابنة عمى ؟ لأتزوجنها من بعده ، فأنزل الله الآية ، فأعتق الرجل رقبة ، وحمل على عشرة أبعرة فى سبيل الله ، وحج ماشيا لأجل كلمته » . وروى أن بعض المنافقين قال حين تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمة بعد أبى سلمة وحفصة بعد خنيس بن حذافة : ما بال محمد يتزوج نساءنا ؟ والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه فنزلت .

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن نساء النبى لا يكلّمن إلا من وراء حجاب — أردف ذلك باستثناء بعض الأقارب ونساء المؤمنين والأرقاء ، لما فى الاحتجاب عن هؤلاء من عظيم المشقة ، للحاجة إلى الاختلاط بهؤلاء كثيرا .

روى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : أو نحن يارسول الله نكلمهنّ من وراء حجاب ؟ فنزلت .

الإيضاح

لاإثم على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى ترك الحجاب حين دخول آبائهن ، سواء أكان الأب أبا من النسب أم من الرضاع أو أبناءهن نسبا أو رضاعا ، أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو أبناء إخوانهن أو أبناء أخواتهن ، أو النساء المسلمات القربى منهن والبعدى ، أو ما ملكت أيمانهن من العبيد لما فى الاحتجاب عنهن من المشقة ، لأنهم يقومون بالخدمة عليهن .

واخشين الله فى السر والعلن فإنه شهيد على كل شىء لاتخفى عليه خافية ، وهو يجازى على العمل خيرا أو شرا .

والخلاصة — إن الله شاهد عليكم عند اختلاء بعضكم ببعض ، فخلوتكم مثل ملئكم فاتقوه فيما تأتون وما تذرون .

إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٥٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر وجوب احترام النبى حال خلوته بقوله : « لَاتَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ » أردف ذلك بوجوب احترامه فى الملإ الأعلى بقوله : « إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ » وفى الملإ الأدنى بقوله : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً » .

الإيضاح

(إن الله وملائكته يصلون على النبى) الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ؛ فالمعنى كما قال ابن عباس: إن الله يرحم النبى والملائكة يدعون له ويطلبون له المغفرة .

وقد أخبر الله سبحانه عباده بمنزلة عبده ونبيه فى الملإ الأعلى بأنه يثنى عليه لدى ملائكته المقربين ، وأن ملائكته تصلى عليه طالبين له مغفرة من الله .

وقد أمرنا بأن نصلى عليه بقوله :

(يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) أى يأيها الذين آمنوا ادعوا له بالرحمة وأظهروا شرفه بكل ما تصل إليه قدرتكم من حسن متابعته والانقياد لأمره فى كل ما يأمر به ، والصلاة والسلام عليه بألسنتكم .

روى البخارى بسنده عن كعب بن عُجْرَة قال : « قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفنا ، فكيف الصلاة ؟ قال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد) .

روى عبدالله بن أبى طلحة عن أبيه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى تُرى فى وجهه ، فقلنا إنا لنرى البشرى فى وجهك ، فقال : جاءنى جبريل فقال : يامحمد إن ربك يقرئك السلام ويقول أما يرضيك أن لايصلى عليك أحد من أمتك إلا صليتُ عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرا » .

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨) .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه باحترام نبيِّه فى بيته وفى الملإ — نهى عن إيذاء الله بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره ، وإيذاء رسوله بإلصاق عيب أو نقص به .

الإيضاح

(إن الذين يؤذون الله) فيرتكبون ما حرمه من الكفر وسائر أنواع المعاصى ، ومنهم اليهود الذين قالوا «يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ» والنصارى الذين قالوا «المَسِيحُ ابْنُ اللهِ» والمشركون الذين قالوا : الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه ، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً .

(ورسوله) كالذين قالوا هو شاعر كاهن مجنون إلى نحو ذلك من مقالاتهم ، فمن آذاه فقد آذى الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله .

(لعنهم الله فى الدنيا والآخرة) أى طردهم من رحمته وأبعدهم من فضله فى الدنيا ، فجعلهم يتمادون فى غيهم ، ويدسّون أنفسهم ويستمرئون سبل الغواية والضلالة التى تردیهم فى النار و بئس القرار ، وفى الآخرة حيث يصلون نارا تشوى الوجوه .

(وأعد لهم عذابا مهينا) أى وهيأ لهم عذابا يؤلمهم ويجعلهم فى مقام الزراية والاحتقار ، والخزى والهوان .

ولما كان من أعظم أذى رسوله أذى من تابعه ، بين ذلك بقوله :

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا .

شرح المفردات

بغير ما اكتسبوا : أى بغير جناية يستحقون بها الأذى ، والبهتان : الكذب الذى يبهت الشخص لفظاعته ، وإثما مبينا : أى ذنبا واضحا بينا .

الإيضاح

أى إن الذين ينسبون إلى المؤمنين والمؤمنات مالم يعملوه وماهم منه براء ، اجترحوا كذبا فظيعا، وأتوا أمرا إدّا، وذنبا ظاهرا ليس له ما يسوّغه أو يقوم مقام العذر له .

روى الضحاك عن ابن عباس قال : أنزلت فى عبد الله بن أبىّ وناس معه قذفوا عائشة رضى الله عنها ؛ فخطب النبى صلى الله عليه وسلم وقال : «من يعذرنى من رجل يؤذينى و يجمع فى بيته من يؤذينى؟».

وروى أبو هريرة «أنه قيل يا رسول الله ماالغيبة ؟ قال ذكرك أخاك بما يكره ، قيل أرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، و إن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه » .

وروى عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : «أىّ الربا أربى عند الله ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم ، ثم قرأ (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً و إثماً مبيناً) » .

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيماً (٥٩) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً (٦٢)

شرح المفردات

الجلابيب : واحدها جلباب وهى الملاءة التى تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار ، يدنين : أى يرخين و يسدلن ؛ يقال للمرأة إذا زل الثوب عن وجهها أدنى ثوبك على وجهك ،أدنى : أى أقرب ، أن يعرفن : أى يميزن عن الإساءة ، مرض : أى ضعف

إيمان بانتهاكهم حرمات الدين ، والمرجفون : هم اليهود الذين كانوا يلفقون أخبار السوء وينشرونها عن سرايا المسلمين وجندهم ، وهو من الإرجاف وهو الزلزلة ؛ وصفت بها الأخبار الكاذبة لكونها مزلزلة غير ثابتة ، لنغرينك بهم : أى لنسلطنك عليهم ولنحرشنك بهم ، ملعونين : أى مبعدين من رحمة الله ، ثقفوا : أى وجدوا ، خلوا : أى مضوا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من يؤذى مؤمنا فقد احتمل بهتانا و إثما مبينا ، زجرا لهم عن الإيذاء — أمر النبى صلى الله عليه وسلم بأن يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع إيذاءهم فى الجملة من التستر والتميز بالزى واللباس حتى يبتعدوا عن الأذى بقدر المستطاع.

روى أنه لما كانت الحرائر والإماء فى المدينة يخرجن ليلا لقضاء الحاجة فى الغيطان و بين النخيل بلا فارق بين الحرائر والإماء ، وكان فى المدينة فساق يتعرضون للإماء وربما تعرضوا للحرائر ، فإذا كُلِّموا فى ذلك قالوا حسبناهن إماء — أمر الحرائر أن يخالفن الإماء فى الزى والتستر ليتمايزن ويُهبن فلا يطمع فيهن طامع .

الإيضاح

(يأيها النبى قل لأزواجك و بناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) طلب الله من نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر النساء المؤمنات المسلمات وبخاصة أزواجه و بناته بأن يسدلن عليهن الجلابيب إذا خرجن من بيوتهن ليتميزن عن الإماء.

روى على بن طلحة عن ابن عباس قال : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدين عينا واحدة .

وعن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية (يدنين عليهن من جلابيبهن) خرج نساء الأنصار كأن رءوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها .

وإجمال ذلك — إن على المسلمة إذا خرجت من بيتها لحاجة أن تسدل عليها ملابسها بحيث تغطى الجسم والرأس ولا تبدى شيئا من مواضع الفتنة كالرأس والصدر والذراعين ونحوها .

ثم علل ذلك بقوله :

(ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) أى ذلك التستر أقرب لمعرفتهن بالعفة فلا يُتعَرَّض لهن ولا يَلْقَيْن مكروها من أهل الريبة احتراما لهن منهم ، فإن المتبرجة مطموع فيها منظور إليها نظرة سخرية واستهزاء كما هو مشاهد فى كل عصر ومصر ، ولا سيما فى هذا العصر الذى انتشرت فيه الخلاعة وكثر الفسق والفجور .

(وكان الله غفورا رحيما) أى وربك غفار لما عسى أن يكون قد صدر من الإخلال بالستر ، كثير الرحمة لمن امتثل أمره معهن ، فيثيبه عظيم الثواب ويجزيه الجزاء الأوفى .

ولما كان الأذى إنما يحصل من أهل النفاق ومن على شاكلتهم حذرهم بقوله :

(لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا) أى لئن لم يكفّ أهل النفاق الذين يستسرّون الكفر ويظهرون الإيمان ، وأهل الريب الذين غلبتهم شهواتهم وركنوا إلى الخلاعة والفجور ، وأهل الإرجاف فى المدينة الذين ينشرون الأخبار الملفقة الكاذبة التى فيها إظهار عورات المؤمنين وإبراز ما استكنّ من خفاياهم كضعف جنودهم وقلة سلاحهم وكُراعهم ونحو ذلك مما فى إظهاره مصلحة للعدو وخضد لشوكة المسلمين — لنسلطنك عليهم وندعوَنّك إلى قتالهم وإجلائهم عن البلاد ، فلا يسكنون معك فيها إلا قليلا وتخلو المدينة منهم بالموت أو الإخراج .

والخلاصة — إن الله سبحانه قد توعد أصنافا ثلاثة من الناس بالقتال والقتل أو النفى من البلاد وهم :

(١) المنافقون الذين يؤذون الله سرًا .

(٢) من فى قلوبهم مرض فيؤذون المؤمنين باتباع نسائهم .

(٣) المرجفون الذين يؤذون النبى صلى الله عليه وسلم بنحو قولهم : غُلب محمد ، وسيخرج محمد من المدينة ، وسيؤخذ أسيرا إلى نحو ذلك مما يراد به إظهار ضعف المؤمنين وسخط الناس منهم .

ثم بين مآل أمرهم من خزى الدنيا وعذاب الآخرة فقال :

(ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتّلوا تقتيلا) أى فى ذلك الوقت القليل الذى يجاورونك فيه يكونون مطرودين من باب الله و بابك ، و إذا خرجوا لاينفكون عن المذلة ولا يجدون ملجأ ، بل أينما يكونوا يطلبوا و يؤخذوا و يقتلوا تقتيلا .

ثم بين أن هذا الحكم عليهم وعلى أمثالهم بنحو هذا هو شرعة الله على أشباههم من قبل ، فهو ليس ببدع فيهم كما قال :

(سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى إن سنته تعالى فى المنافقين فى كل زمان إذا استمروا فى كفرهم وعنادهم ولم يرجعوا عما هم فيه أن يسلط عليهم أهل الإيمان فيذلوهم و يقهروهم ، وهذه السنة لاتغير ولا تبدل ، لابتنائها على الحكمة والمصلحة ، ولا يقدر غيره على تغييرها .

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) .

شرح المفردات

الساعة : يوم القيامة ، وما يدريك : أى وأىّ شىء يعلمك وقت قيامها ، سعيرا : أى نارا مستعرة متقدة ، سادتنا : أى ملوكنا ، وكبراءنا : أى علماءنا ، ضعفين من العذاب : أى مثلى عذابنا ؛ لأنهم ضلوا وأضلوا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال هذه الفئات الثلاث فى الدنيا وأنهم يلعنون ويهانون ويقتلون ، عطف على ذلك ذكر حالهم فى الآخرة فذكّرهم بيوم القيامة وبيّن ما يكون لهم فى هذا اليوم .

الإيضاح

(يسألك الناس عن الساعة) أى يكثر الناس هذا السؤال ، متى تقوم الساعة ؟ فالمشركون يسألون عن ذلك استعجالا لها على طريق التهكم والاستهزاء ؛ والمنافقون يسألون سؤال المتعنت العالم بما يجيب به الرسول ؛ واليهود يسألون سؤال امتحان واختبار ، ليعلموا أيجيب بمثل ما فى التوراة من ردّ أمرها إلى الله أم يجيب بشىء آخر؟

فلقنه الله الجواب عن هذا بجعل ردّ ذلك إليه تعالى فقال :

(قل إنما علمها عند الله) الذى أحاط علمه بكل شىء ، ولم يطلع عليها ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا .

ثم أكد نفى علمها من أحد غيره بقوله :

(وما يدريك) أى وأىّ شىء يعلمك وقت قيامها ؟ أى لا يعلمك به أحد أبدا .

ثم أخبر عن قرب وقوعها بقوله :

(لعل الساعة تكون قريبا) أى لعلها توجد وتحقق بعد وقت قريب .

ونحو الآية قوله : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » وقوله : « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ » وقوله : « أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » .

وفى هذا تهديد للمستعجلين المستهزئين ، وتبكيت للمتعنين والممتحنتين .

ثم بين حال السائلين عنها المنكرين لها بقوله :

(إن الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيرا . خالدين فيها أبدا) أى إن الله أبعد الكافرين به من كل خير ، وأقصاهم من كل رحمة ، وأعد لهم فى الآخرة نارا تتقد وتتسعر ليَصْلِيهُمُوها ، ما كثين فيها أبدا إلى غير نهاية .

ثم أيأسهم من وجود ما يدفع عنهم العذاب من الولىّ والنصير بقوله :

(لايجدون وليّا ولا نصيرا) أى لايجدون حينئذ من يستنقذهم من السعير وينجيهم من عذاب الله بشفاعة أو نصرة كما هى الحال فى الدنيا لدى الظلمة ، إذ ربما وجد النصير والشفيع الذى يخلص فيها من الورطات ويدفع المصايب والنكبات .

(يوم تقلّب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) أى لايجدون وليا ولا نصيرا حين تصرف وجوههم فيها من جهة إلى أخرى كاللحم يشوى فى النار أو يطبخ فى القدر فيدور به الغليان من جهة إلى أخرى ، ويقولون إذ ذاك على طريق التمنى : ليتنا أطعنا الله فى الدنيا وأطعنا رسوله فيما جاء نابه من أمر ونهى ، فما كنا نبتلى بهذا العذاب ، بل كنا مع أهل الجنة فى الجنة — يا لها حسرة وندامة ما أعظمها وأجلها .

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

ونحو الآية قوله : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا » وقوله : « رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ » .

ثم ذكر بعض معاذيرهم بإلقائهم التبعة على من أضلوهم من كبرائهم وسادتهم بقوله :

(وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) أى وقال الكافرون يومئذ وهم فى جهنم : ربنا إنا أطعنا أئمتنا فى الضلالة وكبراءنا فى الشرك فأضلونا السبيل ، وأزالونا عن محجة الحق وطريق الهدى من الإيمان بك والإقرار بوحدانيتك والإخلاص لطاعتك فى الدنيا .

وفى هـذا إحالة الذنب على غيرهم كما هى عادة المذنب يفعل ذلك وهو يعلم أنه لايجديه نفعا .

ثم ذكر أنهم يدعون ربهم على طريق التشفى ممن أوردهم هذا المورد الوخيم ، أن يضاعف لهم العذاب ، إذ كانوا سبب ضلالهم ووقوعهم فى بلواهم وإن كانوا يعلمون أن ذلك لايخلصهم مما هم فيه ، فقالوا :

(ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) أى ربنا عذبهم مثلى عذابنا الذى تعذبنا به : مِثْلاً على ضلالهم ، ومثلا على إضلالهم إيانا ، واخزهم خزيا عظيما واطردهم من رحمتك .

روى الشيخان عن عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال : يا رسول الله علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى ، قال : « قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا (٦٩) .

شرح المفردات

الوجيه : هو ذو الجاه والمنزلة ومن يكون له من خصال الخير ما به يعرف ولا ينكر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن من يؤذى الله ورسوله يلعنه الله فى الدنيا والآخرة ، ولا شك أن هـذا فى الإيذاء الذى يؤدى إلى الكفر ، وقد حصره الله فى النفاق ومرض القلب والإرجاف على المسلمين ـ أعقب ذلك بإيذاء دون ذلك لايورث الكفر كعدم الرضا بقسمة النبى صلى الله عليه وسلم للفىء ونهى الناس عنه أيضا ، وذكر أن بنى إسرائيل قد آذوا موسى ونسبوا إليه ما ليس فيه فبرأه الله منه لأنه ذو كرامة ومنزلة لديه فلا يلصق به ما هو نقص فيه .

الإيضاح

يأيها الذين آمنوا بالله ورسوله لاتؤذوا الرسول بقول يكرهه ولا بفعل لايحبه ، ولا تكونوا أمثال الذين آذوا موسى نبى الله فرموه بالعيب كذبا وباطلا ، فبرأه الله مما قالوه من الكذب والزور بما أظهر من الأدلة على كذبهم ، وقد كان موسى ذا وجاهة وكرامة عند ربه لايسأله شيئا إلا أعطاه إياه .

ولم يعين لنا الكتاب الكريم ما قالوا فى موسى ، ومن الخير ألا نعينه حتى لا يكون ذلك رجما بالغيب دون أن يقوم عليه دليل ، وقد اختلفوا فيه أهو عيب فى بدنه كبرص ونحوه ، أم هو عيب فى خُلُقه ؟ فقد رووا أن قارون حرّض بغيًا على قذفه بنفسها فعصمه الله من كذبها ، وقيل إنهم اتهموه بقتل هارون لما خرج معه إلى الطور ومات هناك ثم استبان لهم بعد أنه مات حتف أنفه .

روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال : « قسم رسول الله ذات يوم قسما فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله فاحمرّ وجهه ثم قال : رحمة الله على موسى فقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

وروى أحمد عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « لايبلّغنى أحد عن أحد من أصحابى شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » .

وعنه أيضا أنه قال : «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مال فقسمه ، قال فمررت برجلين ، وأحدهما يقول لصاحبه: والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة ، قال فثبتّ حتى سمعت ما قالا ، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إنك قلت لنا : لا يبلغنى أحد عن أصحابى شيئا و إنى مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا ، فاحمرّ وجه رسول الله وشق عليه ثم قال : دعنا منك لقد أوذى موسى بأكثر من هذا فصبر » .

ومن هـذا يتبين أن إيذاء موسى كان بالقدح فى أعماله وتصرفاته ، لا بالعيب فى بدنه كما روى .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً (٧١) .

شرح المفردات

القول السديد : القول الصدق الذى يراد به الوصول إلى الحق ، من قولهم : سدد سهمه إذا وجهه للغرض المرمىّ ولم يعدل به عن سمته .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أو فعل ، أرشدهم إلى ما ينبغى أن يصدر منهم من الأقوال والأفعال التى تكون سببا فى الفوز والنجاة فى الدار الآخرة ، والقرب من الله سبحانه والحظوة لديه .

الإيضاح

يأيها الذين آمنوا اتقوا الله أن تعصوه فتستحقوا بذلك عقوبته ، وقولوا فى رسول الله والمؤمنين قولا قاصدا غير جائر ، حقا غير باطل ، يوفقكم لصالح الأعمال ويغفر لكم ذنوبكم فلا يعاقبكم عليها .

ومن يطع الله ورسوله فيعمل بما أمره به وينته عما نهاه عنه ويقل السديد من القول فقد ظفر بالمثوبة العظمى والكرامة يوم العرض الأكبر .

والخلاصة — إنه سبحانه أمر المؤمنين بشيئين : الصدق فى الأقوال ، والخير فى الأفعال ، وبذلك يكونون قد اتقوا الله وخافوا عقابه ، ثم وعدهم على ذلك بأمرين:

(١) إصلاح الأعمال إذ بتقواه يصلح العمل ، والعمل يرفع صاحبه إلى أعلى عليين ويجعله يتمتع بالنعيم المقيم فى الجنة خالدا فيها أبدا .

(٢) مغفرة الذنوب وستر العيوب والنجاة من العذاب العظيم .

إِنا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيماً (٧٣) .

شرح المفردات

العرض هنا : النظر إلى استعداد السموات والأرض ، والأمانة كل ما يؤتمن عليه المرء من أمر ونهى فى شئون الدين والدنيا ، والمراد بها هنا التكاليف الدينية ، وسميت أمانة من قبل أنها حقوق أوجبها الله على المكلفين وائتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بالطاعة والانقياد وأمرهم بالمحافظة عليها وأدائها دون الإخلال بشىء منها ،

فأبين : أى كنّ غير مستعدات لها ، وحملها الإنسان : أى كان مستعدا لها ، إنه كان ظلوما : أى كثير الظلم لما غلب عليه من القوة الغضبية ، جهولا : أى كثير الجهل لعواقب الأمور لما غلب عليه من القوة الشهوية .

المعنى الجملى

بعد أن بين عزّ اسمه عظم شأن طاعة الله ورسوله ، وأن من يراعيها فله الفوز العظيم ، ومن يتركها استحق العذاب الأليم ـ أردف ذلك بعظم شأن ما تنال به تلك الطاعة من فعل التكاليف الشرعية وأن حصولها عزيز شاقّ على النفوس ، ثم بيان أن ما يصدر منهم من الطاعة أو يكون منهم من إباء بعدم القبول والالتزام إنما يكون بلا جبر ولا إلزام .

الإيضاح

(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) أى إنا لم نخلق السموات والأرض على عظم أجرامها وقوة أسرها مستعدة لحمل التكاليف بتلقى الأوامر والنواهى والتبصر فى شئون الدين والدنيا ، ولكن خلقنا الإنسان على ضعف مُنَّته وصغر جرْمه مستعدا لتلقيها والقيام بأعبائها ، وهو مع ذلك قد غلبت عليه الانفعالات النفسية الداعية إلى الغضب فكان ظلوما لغيره ، وركب فيه حب الشهوات والميل إلى عدم التدبر فى عواقب الأمور ، ومن ثم كلفناه بتلك التكاليف لتكسر سورة تلك القوى وتخفف من سلطانها عليه وتَكْبت من جماحها حتى لا توقعه فى مواقع الردى .

ثم بين عاقبة تلك التكاليف فقال :

(ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أى وكان عاقبة حمل الإنسان لهذه الأمانة أن يعذب من خانها وأبى الطاعة

والانقياد لها من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويقبل توبة المؤمنين والمؤمنات إذا رجعوا إليه وأنابوا ، لتلافيهم ما فرط منهم من الجهل وعدم التبصر فى العواقب وتداركهم ذلك بالتوبة .

ثم علل قبوله لتوبتهم بقوله :

(وكان الله غفورا رحيما) أى وكان الله ستارا لذنوب عباده كثير الرحمة بهم ، ومن ثم قبل توبة من أناب إليه ورجع إلى حظيرة قدسه وأخلص له العمل وتلافى ما فرط منه من الزلات ، وأثابه على طاعته بالفوز العظيم .

نسألك اللهم أن تتوب علينا ، وتغفر لنا ما فرط منا من الزلات ، وتثيبنا بالفوز العظيم فى الجنات ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات .

تنبيـــه

ذكر سبحانه فى هذه السورة الكثير من الشئون الزوجية وكيف تعامل الزوجات ، وقد رأينا أن نذكر هنا مسألتين كثر الخوض فيهما من أرباب الأديان الأخرى ومن نابتة المسلمين الذين تعلموا فى مدارسهم وسمعوا كلام المبشرين ، ظنا منهم أنهم وجدوا مغمزا فى الإسلام وأصابوا هدفا يصمى الدين ، ويجعل معتنقيه مضغة فى أفواه السامعين ، وأنّى لهم ذلك ، وليتهم فكروا وتأملوا ، قبل أن يتكلموا .

أرى العنقاء تكبر أن تصادا فعاند من تطيق له عنادا

(١) تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم وكثرتهن بينما لم يبح مثل ذلك لأمته .

(٢) إباحة تعدد الزوجات لعامة المسلمين .

ومن ثم وجب علينا أن نميط اللثام عن الأسباب التى دعت إلى كل منهما .

أسباب تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم

قبل أن ندخل فى تفاصيل البحث نذكر لك أن النبى صلى الله عليه وسلم عاش مع خديجة خمسا وعشرين سنة لم يتزوج سواها ، وكانت سنه إذ ذاك ناهزت

الخمسين ، وكان قد تزوجها فى شرخ شبابه إذ كانت سنه وقتئذ خمسا وعشرين سنة وكانت سنها أربعين وعاشا معا عيشا هنيا شعاره الإخلاص والوفاء ، وكانت من أكبر أنصاره على الكفار الذين سخروا منه وألحقوا به ضروبا شتى من الأذى ، ولم يشأ أن يتزوج غيرها مع ما كان يبيحه له عرف قومه ، بل ظل وفيا لها حتى توفيت فحزن عليها حزنا شديدا وسمى عام وفاتها عام الحزن ، ولم ينقطع عن ذكراها طوال حياته .

والآن حق علينا أن نذكر لك الأسباب التى حدت النبى صلى الله عليه وسلم إلى التعدد ؛ وهى قسمان : أسباب عامة وأسباب خاصة :

الأسباب العامة

(١) إن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم عامة للرجال والنساء ، ومن التشريع ما هو مشترك بين الرجل والمرأة وما هو خاص بأحدهما ، وكل يحتاج فى تلقينه إلى عدد ليس بالقليل لتفرق المرسل إليهم وكثرهم وقصر زمن حياة الرسول ، وكثرة الأحكام ، وإلا لم يحصل التبليغ على الوجه الأتم .

ومن الأحكام المتعلقة بالنساء ما تستحيى المرأة أن تعرفه من الرجل ، ويستحيى الرجل من تبليغه للمرأة ، ألا ترى إلى ما روى عن عائشة رضى الله عنها أن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : كيف أغتسل من الحيض ؟ قال : خذى فرصة ممسكة (قطعة قطن) فتوضئ ـ قالها ثلاثا وهو فى كل ذلك يقول : سبحان الله عند إعادتها السؤال ، ثم أعرض عنها بوجهه استحياء ، فأخذتها عائشة وأخبرتها بما يريد النبى صلى الله عليه وسلم .

ومن ثم وجب أن يتلقى الأحكام الخاصة بالنساء من الرسول صلى الله عليه وسلم عدد كثير منهن ، وهن يبلغن ذلك إلى النساء ، ولا يصلح للتلقى عنه إلا أزواجه ، لأنهن لهن خصائص تمكنهن من معرفة أغراض النبى دون تأفف ولا استحياء ،

يرشد إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » يريد عائشة رضى الله عنها ، والعرب تقول امرأة حمراء : أى بيضاء .

(٢) إن المصاهرة من أقوى عوامل التآلف والتناصر كما هو مشاهد معروف ، والدعوة في أول أمرها كانت فى حاجة ماسة إلى الإكثار من ذلك ، لاجتذاب القبائل إليه ومؤازرتهم له ، لذود عوادى الضالين ، وكف أذاهم عنه ، ومن ثم كان أكثر زوجاته من قريش سيدة العرب .

(٣) إن المؤمنين كانوا يرون أن أعظم شرف وأمتن قربة إلى الله تعالى مصاهرتهم لنبيه وقربهم منه ، فمن ظفر بالمصاهرة فقد أدرك ما يرجو . ألا ترى أن عمر رضى الله عنه أسف جد الأسف حين فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته وقال : لا يعبأ بعدها بعمر ، ولم ينكشف عنه الهم حتى روجعت ، وأن عليا كرم الله وجهه على اتصاله برسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق النسب وشرف اقترانه بالزهراء رغب فى أن يزوجه أخته أم هانئ بنت أبي طالب ليتضاعف شرفه ولم يمنعها من ذلك إلا خوفها أن تقصّر فى القيام بحقوق الرسول مع خدمة أبنائها .

الأسباب الخاصة بزواج كل واحدة من أمهات المؤمنين

(١) تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بعد خديجة سَوْدة بنت زَمْعة أرملة السكران بن عمرو الذى أسلم واضطر إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة هربا من اضطهاد المشركين ومات هناك وأصبحت امرأته بلا معين ، وهى أرمل رجل مات فى سبيل الدفاع عن الحق ، فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وفاء لرجل غادر الأهل والأوطان احتفاظا بعقيدته ، وقد شاركته هذه الزوجة فى أهوال التغريب والنفى ، وحماية لها من أهلها أن يفتنوها ، لأنها هاجرت مع زوجها على غير رغبتهم .

(٢) تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية وعمرها زهاء خمسين عاما ، وكان زواجه منها سببا فى دخول خالد بن الوليد فى دين الله ، وهو المجاهد الكبير والبطل العظيم ،

وهو الذى غلب الروم على أمرهم فيما بعد ، وله فى الإسلام أيام غُرٌّ محجلة - إلى أن زواجها بالنبى صلى الله عليه وسلم يسر لذوى قرباها وسيلة للعيش فطعموا من جوع وأمنوا من خوف وأثروا بعد فاقة .

(٣) تزوج جُوَيرية وكان أبوها الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق بن خزاعة جمع قبل إسلامه جموعا كثيرة لمحاربة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولما التقى الجمعان عرض عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام فأبوه فحاربهم حتى هزموا ووقعت جويرية فى سهم ثابت بن قيس ، فكاتبها على تسع أواق من الذهب فلم تر معينا لها غير النبى صلى الله عليه وسلم فجاءت إليه وأدلت بنسبها وطلبت حريتها فتذكر النبى صلى الله عليه وسلم ما كان لأهلها من العز والسؤدد وما صاروا إليه بسوء التدبير والعناد ، فأحسن إليها وإلى قومها بأداء ما عليها من نجوم ثم تزوجها فقال المسلمون بعد أن اقتسموا بنى المصطلق : إن أصهار رسول الله لايُسترقون ، وأعتقوا من بأيديهم من سبيهم ، وعلى إثر ذلك أسلم بنو المصطلق شكرا لله على الحرية بعد ذل الكفر والأسر .

(٤) تزوج السيدة عائشة مكافأة لأبى بكر الصديق ، إذ كان شديد التمسك برسول الله صلى الله عليه وسلم مولعا بالتقرب منه ، فكان ذلك قرة عين لها ولأبويها وفخرا لذوى قرباها ، وكان عبد الله بن الزبير (ابن أختها) يفاخر بنى هاشم بذلك .

(٥) تزوج أم المؤمنين حفصة بنت عمر مكافأة لزوجها الذى توفى مجروحا فى موقعة بدر ؛ وفى تلك الحقبة كانت السيدة رُقية بنت الرسول وزوج عثمان قد توفيت ، فعرض عمر ابنته على عثمان فأعرض عنها رغبة فى أم كلثوم بَضْعة الرسول ليستديم له بذلك الشرف ، فمز هذا على عمر وأنفت نفسه فشكاه إلى أبى بكر فقال له لعلها تتزوج من هو خير منه ويتزوج من هى خير منها له (يريد زواج عثمان بأم كلثوم وزواج حفصة بالنبى صلى الله عليه وسلم) .

(٦) تزوج صفية بنت حيىّ بن أخطب سيد بنى النضير ، وكانت قد وقعت

فى السبى مع عشيرتها ، فأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها رأفة بها إذ ذلت بعد عزة واسترقت وهى السيدة الشريفة عند أهلها ، وتأليفا لقومها حتى يدخلوا فى كنف الإسلام و ينضووا تحت لوائه .

(٧) تزوج زينب بنت جحش الأسدية ، لإبطال عادة جاهلية كانت متأصلة عند العرب وهى التبنى بتنزيل الدعىّ منزلة الابن الحقيقى ، و إذ أراد الله إبطال هذه العادة جعل رسوله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة فى هذا ، فسعى فى تزويج زيد مولاه بعد أن أعتقه بزينب ذات الحسب والمجد فأنفت هى وأخوها عبد الله ، وأبت أن تكون زوجا لدعىّ غير كفء ، فأنزل الله « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » فرضيا بقضاء الله ورسوله غير أنها كانت نافرة من هـذا القران مترفعة عن زيد ضائقة به ذرعا فآثر فراقها فسأل الرسول الإذن فى ذلك فقال له : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأخفى فى نفسه ما الله مبديه من تزوجه منها بعد زيد وخشى أن يقول الناس : تزوج محمد من زيد ابنه .

ولما لم يبق لزيد فيها شىء من الرغبة طلقها فتزوجها النبى صلى الله عليه وسلم إبطالا لتلك العادة وهى إعطاء المتبنى حكم الابن ، وقد تقدم تفصيل هذا فى أثناء تفسير السورة بشىء من البسط والإيضاح .

ومما سلف يستبين لك أن ما يتقوله غير المنصفين من الغربيين من أن النبى صلى الله عليه وسلم خوّل لنفسه ميزة لم يعطها لأحد من أتباعه ـ لا وجه له من الصحة فإن زواجه بأمهات المؤمنين كان لأغراض اجتماعية اقتضتها الدعوة ، ودعا إليها حب النصرة ، ولا سيما إذا علم أنه لم يتزوج بكرا قط إلا عائشة ، وأن من أمهات المؤمنين من كن فى سن الكهولة أو جاوزنها .

أسباب إباحة تعدد الزوجات فى الإسلام

يجدر بذوى الحصافة فى الرأى أن ينظروا إلى الأسباب التى دعت أن يبيح الإسلام تعدد الزوجات دون أن ينقموا عليه ذلك ويرموه بالقسوة ، فإن فى بعضها ما هو موجب للتعدد لا مجيز له فحسب .

وهاك أهم الأسباب :

(١) قد تصاب المرأة أحياناً بمرض مزمن أو مرض معدٍ يجعلها غير قادرة على القيام بالواجبات الزوجية ، فيضطر الرجل إلى أن يقترف ما ينافى الشرف والمروءة ويُغضب الله ورسوله إن لم يبح له أن يتزوج بأخرى .

(٢) دل الاستقراء على أن عدد النساء يربو على عدد الرجال ، لما يعانيه هؤلاء من الأعمال الشاقة التى تنهك القوى وتضوى الأجسام ، ولا سيما الحروب الطاحنة ، فإذا منع التعدد لا يجد بعض النساء أزواجا يحصنونهن ويقومون بشئونهن ، فيكثر الفساد ويلحق الأسر العار وتعضهن الحياة بأنيابها .

(٣) حضت الشريعة الإسلامية على كثرة النسل لتقوى شوكة الإسلام وتعلو سطوته وتنفذ كلمته حتى ترهبه الأعداء وتتقيه الأمم المناوئة له ، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بإباحة تعدد الزوجات ، لأن المنع مفض إلى تناقص النسل ، ولا أدل على ذلك من أن عقلاء الأمم فى الغرب أشفقوا على أممهم لما اعتراها من نقص فى النسل بسبب منع التعدد من ناحية وإحجام كثير من شبانهم عن الزواج والاجتزاء بالسفاح فرارا من الحقوق الزوجية وأعباء الأولاد من ناحية أخرى ، ومن ثم لجأ كثير من الدول الغربية إلى ارتباط بعضهم ببعض بالحلف والعهود والمواثيق ، طلبا لنيل فائدة التكاثر ، وبذلك تبقى لهم السيادة الدولية .

(٤) دل الإحصاء فى كثير من البلاد الغربية على أن حظر تعدد الزوجات أدى إلى كثرة الأولاد غير الشرعيين مما حدا ببعض المفكرين إلى النظر فى تورثهم.

(٥) كان من نتائج منع التعدد انتشار كثير من الأمراض الفتاكة التى أصابت الرجال والنساء والأطفال حتى عجز الطب عن مكافحتها وتغلغل الداء وعز الدواء، مما جعل بعض البلاد تسن القوانين التى تمنع عقد الزواج إلا بعد إحضار صك رسمى بخلو الزوجين من الأمراض المعدية والأمراض التى تجعل النسل ضعيفا ضاويا لا يستطيع الكفاح فى الحياة.

ما حوته السورة الكريمة من أغراض ومقاصد

(١) الأمر بتقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين.

(٢) وجوب اتباع ما ينزل به الوحى مع ضرب المثل لذلك.

(٣) إبطال العادة الجاهلية وهى إعطاء المتبنى حكم الابن وبيان أن الدين منه براء.

(٤) إبطال التوريث بالحلف والتوريث بالهجرة، وإرجاع التوريث إلى الرحم والقرابة.

(٥) ذكر النعمة التى أنعم بها عليهم فى وقعة الخندق بعد أن اشتد بهم الخطب.

(٦) تخيير النبى نساءه بين شيئين: الفراق إذا أردن زينة الحياة الدنيا والبقاء معه إذا أحببن الله ورسوله والدار الآخرة.

(٧) التشديد عليهن بمضاعفة العذاب إذا ارتكبن الفواحش، ونهيهن عن الخضوع فى القول وأمرهن بالقرار فى البيوت، وتعليمهن كتاب الله وسنة رسوله، ونهيهن عن التبرج.

(٨) قصة زينب بنت جحش وزيد مولى رسوله صلى الله عليه وسلم .

(٩) ما أحل لنبيه من النساء وتحريم الزواج عليه بعد ذلك .

(١٠) النهى عن إيذاء المؤمنين للنبى صلى الله عليه وسلم إذا دخلوا بيته لطعام ونحوه .

(١١) الأمر بكلام أمهات المؤمنين من وراء حجاب إذا طلب منهن شىء إلا الآباء والأبناء والأرقاء .

(١٢) أمرهن بإرخاء الجلباب إذا خرجن لقضاء حاجة .

(١٣) تهديد المنافقين وضعاف الإيمان والمرجفين فى المدينة .

(١٤) سؤال المشركين عن الساعة متى هى ؟

(١٥) النهى عن إيذاء النبى حتى لايكونوا كبنى إسرائيل الذين آذوا موسى .